بوذا

إفرحوا للأنباء السارة ! سيدنا بوذا قد عرف أصل الشر كله وهدانا طريق الخلاص ! .

بوذا يفرق شمل أوهام عقولنا ، وينقذنا من أهوال الموت .

بوذا – سيدنا – يريح المتعبين ، ويسعد المكروبين ، وينزل السكينة على قلوب الذين نلعوا بأعباء الحياة ، ويشجع المستضعفين حينما يشرفون على فقدان ثقتهم بأنفسهم ويودعون الأمل .

وأنتم يامن تعانون شدائد الحياة ، ويا أيها المجاهدون الصابرون ، ويامن صبت نفوسهم إلى حياة الحق إفرحوا للأنباء السارة .

لقد جاء البلسم للجرحى ، والخبز للجائعين ، والماء للظماء ، والأمل لليائسين ، ولمع الضوء لمن احتواهم الظلام ، وحل اليمن الذى لاينفد للصالحين .

داووا جراحاتكم أيها المجروحون ، وكلوا حتى تشبعوا أيها الجائعون ، واستريحوا أيها المتعبون ، وأرووا ظمأكم أيها العطاش الصادون ، واشخصوا بأبصاركم إلى النور أيها القاعدون فى الظلام ، وليغمر السرور قلوبكم يامن خانهم الحظ ، وتنكرت لهم الأيام .

لتثقوا بالحق أيها المحبون للحق ، لأن ملكوت الصلاح قد قامت فى الأرض دولته ، ونسخ ضوء الحق ظلام الباطل .

نستطيع الآن أن نتبين طريقنا ، ونسدد خطواتنا ، فقد جلا لنا سيدنا بوذا الحق .

الحق يشفى أوجاعنا ، وينقذنا من الهلاك ، ويمدنا بالقوة فى الحياة والموت ، والحق وحده يستطيع أن يغلب شرور الباطل .

افرحوا للأنباء السارة ! »

بهذا التشيد الواضح الدلالة على اتجاه البوذية استهل الكاتب البحاثة الأمريكى يول كيرس كتابه «إنجيل بوذا» الذى جمع مادته من شتى أسفار البوذية وسننها وتعاليمها .

ولا نزاع بين الباحثين العارفين فى أن بوذا منشئ هذه العقيدة الواسعة الانتشار ، والكثيرة الأتباع والأشياع من أعظم وأنبل الشخصيات التى عرفها تاريخ الإنسانية ، وإذا عددنا عظماء الهنود فإن بوذا يأتى فى الطليعة ، وقد بدأ الأستاذ واديا المفكر الهندى المعاصر فصلاً كتبه عن بوذا بقوله[1] «قليل من الناس – سواء فى داخل الهند أو فى خارجها – الذين ينكرون أن بوذا هو أعظم هندى فى جميع الأزمان» .

والواقع أننا حينما نقترب من البوذية نجد أنفسنا إزاء عقيدة إنسانية فلسفية النزعة سامية الأهداف ، وحينما تطالعنا شخصية بوذا نجد أننا تلقاء شخصية جديرة بالحب والإعجاب والتقدير سواء رضينا عن مذهبه وقبلناه أو رفضناه وأنكرناه ، وسواء نظرنا إلى البوذا من ناحية صفاء نفسه وطهارتها ، وعذوبة روحه ولطافتها ، وجرأة أفكاره وأصالتها أو من ناحية بعد مدى تأثيره فى ثقافة الهند والصين واليابان وتوجيه التفكير فإن ليس من السهل أن نجد له نظيراً يساميه فى نبالته أو يداناه فى قداسته ، أو يقاربه فى تماسك منطقه وقوة حجته .

وقد كانت القوانين التى يقررها العلماء النفسيون والباحثون الإجتماعيون من ناحية الوراثة وآثار البيئة وعوامل النشأة تحتم أن ينشأ البوذا هندوسياً غالياً فى

(١) راجع عدد ابريل سنة ١٩٤٨ من مجلة «الفلسفة» البريطانية صفحة ١١٦ .

محافظته ، ولكن قوانين العبقرية المجهولة الخفية كانت تعمل على توجيهه وجهة أخرى .

وتختلف الآراء فى بوذا فهل هو موجد دين أوخالق فلسفة حياة؟ وربما كان الجواب عن ذلك يتوقف على مدى فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة ، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا متصرفة فى أقدارنا ومصائرنا وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا فإن بوذا بمقتضى هذا التفسير لم يكن صاحب دين ، وذلك بالرغم من أن أتباعه رفعوه بعد موته بقرون إلى مرتبة الآلهة ، وقبلوا كلماته باعتبارها حقائق لا يتطرق إليها الخطأ ، ولكن هذا من صنع الأتباع وليس من عمل بوذا نفسه ، فقد كان يحاول على الدوام أن يبسط آراءه بسطاً منطقياً ، ويؤيدها بالحجة الناصعة ، والتفكير المستقيم ، والمنطق الرصين ، فهو صاحب فلسفة أكثر بكثير مما هو صاحب دين .

وقد كان هذا المفكر العميق الثائر يحمل سامعيه تبعة خطيرة ، ويكلفهم تكليفاً صعباً ، فمن أقواله «لا تقبلوا كل ماينقل إليكم أويروى لكم ، ولا تستسلموا للتقاليد ، ولا تقبلوا قضية من القضايا لأنها وردت فى أسفارنا ، ولا لأنها توافق عقيدتكم ، ولا لأنها من أقوال معلمكم» فهو يلزم سامعيه هذه الإلزام المكروه وهو أن يفكر الإنسان لنفسه ، ويعمل عقله ، ويستقل فى تفكيره ! وهى من غير شك نصيحة شاقة ، ومطلب عزيز ، فإن الأيسر والأنقى للهموم والمتاعب هو أن يتجنب الإنسان التفكير ، ويحط عن كاهله تبعته ، ويعتمد على ماخلفه له المتقدمون ، وتاريخ البوذية نفسه كسائر تواريخ المشكلات الفكرية يرينا صعوبة الأخذ بهذه النصيحة :

ولم يكن بوذا منكراً للآلهة ، وإنما كان موقفه منهم يشبه موقف اللاأدريين ، فهو لا يشغل باله بوجود الآلهة أوعدم وجودها ، وذلك لأن

خلاص الإنسان فى رأيه متوقف على نفسه لا على الآلهة ، والإنسان فى رأى بوذا هو صانع مصيره ، ومن كلمات بوذا الأخيرة لأتباعه «كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بذاتها ، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفاً ، ولا تعتصموا بملاذ خارجى ، ولا تحتموا بغير أنفسكم» ومن كان هذا رأيه وتلك عقيدته فما حاجته إلى الآلهة ؟

وقد وصف بعض الباحثين البوذية بأنها ديانة معطلة ، ولكن الواقع أن هذا الوصف لا يخلو من مبالغة وإسراف ، فإن المسألة هنا مسألة عدم اكتراث لا مسألة جحود وإنكار ، ومما أخذ على البوذية أنها تؤكد جانب الحزن فى الحياة وتنزع نزعة تشاؤمية ، وكون البوذية شديدة الشعور بوجود الشقاء حقيقة لا تنكر ولكن كونها ديانة ميالة إلى التشاؤم مسألة فيها نظر ، فبوذا قد حاول أن يبصر الناس بطريق الخلاص من شرور الحياة ، وسبيل النجاة من أحزانها .

ومن أقوال بوذا عن النرفانة «يا أصدقائى ، إن القضاء على الجشع ، والقضاء على الكراهية ، والقضاء على الوهم ، ذلك كله يا أصدقائى هو النرفانة» فالنرفانة على ما يظهر ليس معناها القضاء على الحياة وإخماد جذوتها ، وإنما معناها قهر الشهوات ، والتغلب على النية السيئة والجهل والغضب والخوف وكل ما يجعل الحياة عبئاً ثقيلاً ، وهما مقعداً مقيماً ، فمن استطاع ذلك يكون قد وصل إلى النوفانة ، وليست هى الوصول إلى العدم والفناء ، وإنما هى الوصول إلى أسمى مراتب الاستنارة الفكرية ، والسيطرة التامة على النفس .

وبعض مفسرى البوذية وشراحها من المفكرين الغربيين يرون فى النرفانة نهاية الموقف السلبى من الحياة وأقصى ما ينتهى إليه اليأس من الوجود ، ولكن المفكرين الهنود يرفضون هذا التفسير ، والنرفانة فى رأيهم موقف إيجابى ، وتسوية مناسبة لمشكلات الحياة ، وطريقة ميسورة للخلاص من آلامها

وأحزانها ، فليست هى من قبيل اليأس الذى يقول فيه البحترى :

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى تعباً كفلن الخائب المكدود

وإنما هى أمل ورجاء فى الإفلات من قيود توالى الميلاد ، وتناسخ الأرواح ، وأسر اللبانات المتعبة ، والشهوات المنهكة ، والمطامع والإغراءات ، والأهواء والنزوات .

وقد ولد بوذا قبل المسيح بستة قرون فى شمال الهند بالمنطقة المعروفة باسم مقاطعة بهار ، ويقال إن والده كان من أعيان مدينة كابيلاقاستو الأثرياء أومن أمرائها ورئيس قبيلة شاكياس ، فهو من أبناء طبقة المحاربين ، وكان اسم أبيه سدذوذانا واسم أمه مايا ، وقد توفيت بعد مولده بسبعة أيام ، فأرضعته شقيقتها وكانت الزوجة الثانية لأبيه وتولته برعايتها .

ولفظة بوذا معناها المستنير ، وأصل اسمه سيدذارثا ، ومعناها الذى بلغ أمله ، واسم أسرته أسرة جوتاما ، وكان وارث إمارة أبيه .

ونلقى بوذا فى أول حياته وفى ريعان شبابه أميراً شريف النسب ، منحدراً من سلالة الفاتحين الآريين ، جميل الصورة ، جذاب المحيا ، حلو الشمائل ، وكان الابن الوحيد الوارث لثروة أبيه ومكانته المرموقة ، ولكننا نجده مع ذلك كله نهباً للهموم وفريسة للأحزان ، والخواطر السود . ولقد ظفر بالحب ، وتزوج حسناء فاتنة ، ورزق طفلاً اسمه راهولا ، ولكن كل ما حفه من أسباب الثراء ، ودواعى المتعة ، ومؤهلات العيشة الراضية ، المترفة الناعمة ، لم يستطع أن يصرفه عن التفكير فى مشكلة الحياة ولغز الوجود ، وكانت أحزان الإنسانية وآلامها تنغص عليه صفو حياته ، وتطيل تفكيره فى قسوة الدهر وظلم الأيام . ولحظ ذلك والده ، فأهمه الأمر ، وساءه ميل الأمير الشاب إلى الوحدة والاعتزال ، والاستغراق فى الأفكار ، والتأملات ، فعمل على أن يجنبه رؤية

المرضى ، وسماع أخبار الموتى ، ومعرفة ما يبتلى به الناس طول العمر والإمعان فى الشيخوخة ، وحرص على ذلك خشية أن يدفع التفكير فى شقاء الحياة ابنه إلى التنسك والتماس الوحدة فى جوف الغابات ، وقنن الجبال ، فلا يجد للإمارة وارثاً من ذريته ، وقدر أن هذا سيثير مطامع جيرانه الأقوياء .

ويروى الرواة أن الأمير الشاب خرج من قصره ذات يوم ، وسار فى الطرقات مثل عامة الناس ، فرأى شيخاً هرماً قد نالت منه الشيخوخة ، فتركت رؤيته فى نفسه أثراً باقياً وألماً موجعاً ، وخرج من القصر فى اليوم التالى ، فوقعت عينه على رجل مريض قد شفه المرض ، وأنهكه الداء ، فعاد إلى القصر حزيناً مغموماً ، وخرج من قصره اليوم الثالث فرأى ميتاً محمولاً إلى القبر ، فعاد يفكر فى مشاهدات هذه الأيام الثلاثة ويقلبها على جوانبها المختلفة ، فما هذه الشيخوخة التى تسلب الإنسان قوته ونضارته واستمتاعه بالحياة ؟ وما هذه الأمراض التى تجعل حياته عذاباً متصلاً ونكبة مستمرة ؟ وما هذا الموت المخيف الغامض المبهم الذى يجعل الإنسان جثة هامدة ويحيله رمة بالية ؟ وما هذه الحياة الإنسانية المستهدفة دائماً للشيخوخة والمرض والموت ؟ إنها مشكلة كبيرة جديرة بأن يتخلى الإنسان عن علاقاته جميعاً حتى تلك العلاقات التى تربطه بأقرب الناس إليه وينازل عن آماله الخاصة ومطالبه الفردية ليفرغ لها ، ويحاول تفسيرها ومعالجة لغزها .

وصار يرى الحياة مأساة غاصة بالكوارث والنوازل والآلام والأحزان وعثرات الحظ وعبث الأقدار وظلم الأيام ، وكان كل ما يشاهده حوله يزيد ألماً وحزناً ، وفكراً وهماً ، وخرج مرة فى عربته ليرى العمال الكادحين الذين يحرثون أرض أبيه ، فرآهم يعملون جميعهم فى وهج الشمس اللافحة سواء الصغير السن منهم أو الشيخ المتهدم ، وقد شحبت وجوههم وعلتها قترة . وتفصد عرقهم وبان

عليهم الكلال والإعياء ، ونمت عيونهم على ما يعانون من كرب وبلاء . وأبصر الثيران التي تجر المحاريث وهي تجهد وتلهث ، وقد اندلعت ألسنتها ، وأدمت السياط ظهورها ، فعاد أدراجه إلى قصره وقد تكاثرت عليه الهموم والأحزان ، وآلمه شقاء الإنسان والحيوان ، وقال لنفسه « إنّ هذه الدنيا قوامها الألم ، وليس بها سوى الشقاء ، فإذا كان هناك طريق للخلاص والنجاة فأين هو ؟ إني من اليأس في سجن » .

وجلس وحيداً ؛ وقد امتلأ قلبه رحمة بالإنسان والحيوان ؛ وأخذ يكد الفكر في التماس سبيل الخلاص ، ولما طال به التفكير على غير جدوى خرج إلى الطريق ومشى الهوينى فصادف رجلاً يحمل في يده مزوداً ويرتدي ثوباً خشن النسج أصفر اللون ، وتلاقت عيناهما ، وخيل للأمير أنه لم يشهد من قبل شبيهاً لهذا الرجل المتسول العجيب ، فقال لنفسه « من يا ترى هذا الرجل ؟ » إنه هادئ المحيا ، وعيناه تدلان على أنه مطمئن النفس ، رخي البال ، وما هذا المزود الذي يحمله في يده ؟ » .

وبينما هو يمعن في تيه هذه الأفكار حياه هذا الرجل الغريب تحية حسنة ، وخاطبه قائلاً « أيها الأمير العظيم إني متسول متدين ، قد راعتني مشكلات الحياة وأزعجتني ، ورأيت الأشياء كلها ليس لها ثبات ولا استقرار ، فصدعت قيودي ، وهجرت داري لأبحث عن سعادة يمكن الاطمئنان إليها والاعتماد عليها ، سعادة غير متقلبة ولا زائلة تشمل الصديق والعدو ، ولا تعبأ بالثروة والجمال ، ولا شيء يرضيني سوى هذا اللون من ألوان السعادة » .

فأخذت الدهشة من الأمير كل مأخذ ، لأن هذا الرجل الغريب ردد صدى الأفكار الجوالة في نفسه فسأله قائلاً « وأين تلتمسها أيها الرجل الحكيم ؟ » .

« ألتمسها أيها السيد العظيم في العزلة وفي أحشاء الغابات ، فهناك في الهدوء

الشامل تقيم الاستنارة ، وإنى أحمل هذا المزود لأضع فيه ما يجود على به المحسنون من فضلات الطعام ؛ وهذا كل ما أطلبه من الدنيا ، وسامح أيها الأمير تعجلى السير فإن طريقى يمتد إلى الجبال حيث تنتظرنى الاستنارة » .

ومضى الرجل لطيته ، وعاد الأمير إلى المدينة مستغرقاً فى التفكير ، وبحث عن والده ، وأفضى إليه بأنه قد اعتزم ارتياد الخلوات واللياذ بالعزلة لينصرف بكليته إلى التفكير فى إيجاد طريق الخلاص لنفسه وللأعزاء عليه وللإنسانية جميعها .

ولا حاجة بنا إلى وصف ما ألم بوالده من الحزن لتصميم الأمير الشاب على ذلك ، ولا إلى ذكر الإغراءات التى كانت تراوده لتثنيه عن عزمه ، وكتم سره عن زوجته ، وأخذ يعد العدة للرحيل والخلاص من أصفاد الحواس ، وتروى التقاليد البوذية أنه سمع فى إحدى الليالى هاتفاً ينبئه بأن وقت الرحيل قد حان ، فاستدعى شونا سائق عربته ، وأمره بإسراج جواده الأبيض الكريم ، وأطاع شونا الأمر فى صمت حزين ، وتسلل إلى غرفة زوجته ، وكانت نائمة فى فراشها واضعة راحتها على رأس ابنها راهولا ، ومد ذراعيه مرتين ليعانقها ، ولكنه أعادهما خشية أن يوقظها ويحملها ألم التوديع ، وخرج من الحجرة ، وترك الاثنين غارقين فى الرقاد وهو يعلم العلم كله أنه قد ضحى بسعادته وسعادة زوجته من أجل البحث عن طريق الخلاص للإنسانية ، وكانت سنه حين ذاك لا تتجاوز التاسعة والعشرين .

وامتطى صهوة جواده ، ووقف شانا إلى جانبه حائل الوجه بادى الأسى ، وخاطب الأمير جواده قائلاً « أيها الجواد الجرئ فى حومة النزال ، والذى لم يعرف الخوف ، استجمع قوتك ، فإنى فى هذه الليلة أمتطى متنك لأبحث عن الخلاص ، لا للإنسان وحده وإنما كذلك للحيوان » ولما سار فى الطريق خلف

أبواب المدينة تلفت إلى الوراء ، وقال فى صوت خفيض «لن أعود إلى هذا المكان إلاّ إذا انتصرت على الشيخوخة والمرض والموت والحزن» .

وتبعه شانا ، وسارا طويلاً ، وطويا مسافات بعيدة حتى بلغا حافة غابة فيحاء ، وخطا الجواد ليشرب وتوقف عن السير ، فترجل الأمير ، ونظر إلى عينى الجواد قائلاً «لقد حملتنى فأحسنت الحمل» والتفت إلى شانا وقال له «يا أوفى الناس وأخلصهم ، لقد عرفتك رجلاً صادق العهد قبل هذه الليلة ، ولكننى الآن ازددت بك علماً ، فقد صحبتنى محتقراً المنافع الزائلة ، مقدماً على الخطر ، مستهدفاً للوم والتفنيد ، وسيذكر قلبى ذلك كله ، والآن خذ الجواد وارجع به» .

فأخذ شانا يتوسل إليه ، ويذكره بوشائج القرابة وروابط الأسرة ، فأجابه الأمير «ما هى هذه الوشائج؟ لوكانت الوفاة قد أدركتنى لكانت هذه الوشائج قد تقطعت ، إن الأقارب فى هذه الدنيا مثل أسراب الطير التى تعشش على الشجرة نفسها فى الليل ، ويتفرق شملها عند تبلج الفجر ، وحينما أجد الطريق إلى السعادة سأعود ، ولن أرجع قبل ذلك» .

وجرد سيفه المرصع بالجواهر ، وحز عقدة الشعر التى كان يلبسها لتدل على أنه من سلالة الآريين الأشراف ، وبينما هو يفعل ذلك مربه صياد يرتدى ثياباً خشنة ، فأعطاه سيدزارنا ثيابه الفخمة ، ولبس ثياب الصياد ، ونظر إلى شانا النظرة الأخيرة ، ومضى فى سبيله إلى الغابة دون أن ينبس بكلمة .

ويروى الرواة أن رغبات القلب ونزوات النفس أخذت تعمل على إغرائه ، وتصورت له فى صورة جمال مارا الحزين ملكة الإغراء ، وهى ليست الشيطان ، وإنما هى جماع ما فى القلب من نوازع ولبانات ، ولكنه قاوم ذلك كله ، وانتقل إلى راجاجريها عاصمة الملك بيسارا صاحب مجاده ، وكان يقيم

هنالك فى كهوف تلال وندبا جماعة من النساك يدرسون فلسفات الهند القديمة آملين أن يستعينوا بها على تفسير مشكلات الحياة ومعالجة ألغازها ، وقصد الغار الذى يقيم به البرهمى آلارا ، فقد كانت شهرة هذا الرجل قد طبقت الآفاق .

وحينما دخل عليه سيد زارثا كان الرجل مستغرقاً فى التفكير ، فجلس فى احترام على مقربة منه وسأل نفسه « أترى فى يد هذا الرجل المفتاح ؟ » وانتظر حتى يروق آلارا أن يوجه إليه الحديث .

ووافق البرهمى على أن يدرس الأمير أسفار الفيدا والأوپانيشاد تحت إرشاده ، وعلمه قواعد كثير من المعلمين والمرشدين ، وبسط له آراءهم ، وحدثه عن الثمرات المرجوة من ممارسة أساليبهم فى التقشف والزهادة ، ووصف له ما تعانيه الروح من الآلام والأحزان وهى تنتقل فى نوبات الميلاد والموت . ثم بلوغها رياض الراحة وجنات النعيم حيث تقضى هناك ملايين السنين ، وكيف يقذف بها بعد ذلك ثانية فى دائرة الميلاد والموت .

واتخذ سيدزارثا له كهفاً يأوى إليه مثل سائر النساك ، وأقبل على الدرس وتوفر على البحث ، وأعجب النساك بهذا الشاب الذى هجر الدنيا فى سبيل التماس الأشياء الروحية ، وأكبروا نبل نفسه ، وهدوء طبعه ، وأرسل إليه والده رجال حاشيته ليعود إليه ، وكان يتلقاهم بالبشر والإيناس ، ولكنه لا يلبى طلبهم .

وكان فى كل يوم يهبط المدينة ، وقد لبس ثوب النساك الأصفر اللون وحمل مزوده ليقدم له المحسنون من الطعام ما يقيم أوده ، وفى إحدى هذه الجولات أبصره الملك بمبسارا وقال لبطانته « انظروا يا سادة إلى هذا الرجل ، إنه جميل الصورة ويبدو عليه الطهر والنقاء ، وبه سمات تدل على أنه نبيل من أصل

آرى ، تأملوا هدوءه ووداعته وثبات جأشه وتفرده؟ اسألوه أين يقصد هذا المتسول ؟» .

وعرف الملك قصته ، وأسف على نبذه الدنيا ، ورجاه أن يعود إليها ، ووعده بأن يشاطره مملكته لأنه أنس فيه القوة الجلال ، ولكن سيدزارثا أجابه قائلاً «أيها الملك النبيل الذائع الصيت المنحدر من الأصل الآرى ، إنى أصغى إلى قولك فى تقدير وإكبار ، وطريق الملك العظيم طريق العدل واليمن ، ولكن طريقى يمتد إلى الأمام ، وقد تركت خلفى الشهوات الخمس ، أترى الأرنب الذى أفلت من فك الثعبان يعود إليه ثانية ليزدرده؟ فعد أنت أيها الملك الحكيم إلى مدينتك السعيدة ، صحبتك السلامه ، وسار فى ركابك اليمن والخير» .

فأجابه الملك «أيها الأمير العظيم ، أرجو أن تبلغ مرادك ، وتجنى ثمرة ميلادك» وتبعه قليلاً هو وحاشيته تحية له ، واحتراماً لمكانته ، وعاد الملك إلى المدينة تصحبه حاشيته .

وأظهر سيدزارثا جلداً وصبراً فى الدرس والبحث حتى اتخذه النساك أتباع آلارا مرشداً لهم ، ولكنه بعد مرور بضع سنوات ظهر له فى وضوح أن معالجة لغز الحياة لا تكون بالطريقة التى يتبعها البراهمة ، وهى الإسراف فى زيادة الجانب الروحى من النفس والمبالغة فى إنمائه ، ومهما يكن الأمر فإن هذه الدراسة قد أجدت عليه ، وزادت بصيرته علماً واستنارة ، وهذه التجارب الروحية الرفيعة الطبقات العالية المستويات لم تخرج عن كونها علاجاً للداء الكامن ، ولكنها مع ذلك لا تستأصله ولا تقضى عليه ، فإنها تترك بقية منه وبؤرة تنبعث منها جراثيمه ، وهذا الأثر الباقى على قلته وضآلته يكون مدعاة لتكرار حركة الميلاد والموت

وترك أستاذه آلارا وهو موجع القلب حزين النفس ، وطلب العلم عند

الأستاذ أوداكا ، فلم يجد عنده ما يريده ، وخاب فيه أمله ، فعقد العزم على ترك الأساتذة ، والذهاب إلى أوراڤيلا ليمارس أشد ضروب الزهد والتقشف ظناً منه أن الروح قد تتحرر إذا حطمت قوة الجسد ، وتم الانتصار عليه ، وأخذ نفسه بنظام صارم ، وقسا عليها قسوة شديدة ، وأذاقها الجوع المضنى ، والظمأ الملوح . ولزم الخلوة والانقطاع للفكر والتأمل ، وكان يجلس طويلاً صامتاً بغير حراك حتى كانت الطيور والوحوش تتحرك من حوله غير خائفة ، فضمر جسده من تقليل الطعام ، ووهنت قوته حتى كاد يعجز عن الحركة ، ولا يقوى على التفكير ، وأدرك فى النهاية أن هذه المبالغة فى تعذيب الجسد غير مجدية ، وأنها ليست الطريق السوى ولا الخطة الحكيمة ، ولحظ أن هذا التعذيب القاهر جعل جسمه لا يقوى على مساندة العقل ، ونوى أن يعود إلى الأكل والشرب ليسترد جسده ما فقده من القوة ، ورأى أن السنوات الست التى أمضاها فى هذه التجارب لم تذهب عبثاً ، وإنما مهدت له السبيل إلى الاستنارة الحقة .

وساء ذلك جماعة النساك فقالوا « لقد أخفق الناسك جوتاما ، وليس عنده ما يعلمنا ، وقد حاد عن الطريق المستقيم » ولكن سيدزارثا وقد استعاد قوته سار بخطوات ثابتة نحو الشجرة التى تنزلت عليه الاستنارة فى ظلالها ، وأبصر رجلا يجز الحشائش لماشيته ، فسأله أن يعطيه ضغثاً من حشائشه ، ورأى سرحة فينانة وارفة الظلال متهدلة الأغصان فافترش الحشائش ، وجلس مضموم اليدين والقدمين ، وآلى على نفسه ألا يبرح هذا المكان إلا بعد أن يظفر بالاستنارة ، وأقبل الليل وأرخى سدوله فحجبه عن الأنظار .

وكانت ليلة رهيبة ، صاول فيها الإغراء مصاولة شديدة ، وحاول العقل والجسد فيها مؤتلفين ومختلفين أن يستدرجاه ويغرياه ويغلباه على أمره ، وتراءت له صور حياته السالفة ، صور الحب والترف والمتعة والقوة والسلطان ، وناوشت

عقله الشكوك ، وهاجمته المشكلات المحيرة ، وتجمعت حوله الأحلام الخادعة ، والأوهام المضلة ، ولكن حب الإنسانية والعطف الشديد عليها مكناه من الثبات فى وسط الزوابع الثائرة ، وجعلاه يستمسك بهدفه الأصيل كالسفينة العظيمة التى تشق طريقها بين هوج العواصف وثوائر الموج إلى فرضة الأمن والسلام .

ولما انجلى الظلام ، وأسفر الصبح ، تلقى الاستنارة كاملة لا يشوبها نقص ، واضحة لا يحيط بها غموض ، ورأى الماضى والحاضر والمستقبل كلا لا يتجزأ ، وعرف العلل والأسباب ، وأسرار الميلاد والموت والانتقال إلى حيوات جديدة ، ورأى فردية الإنسان أو ذاتيته وقد تكشفت له الأجزاء التى تتكون منها جزءاً جزءاً ، وأبصر طريق الخلاص ، وجلس البوذا — أو الذى بلغ غاية الاستنارة — يتأمل الوجود على حقيقته لأنه دخل النرفانة حيث الأمن والسلام ، ومر به النهار والليل دون أن يراهما لأنه كان مستغرقاً فى عالم النرفانة ، عالم الصفاء والنقاء والهدوء والسكينة والأمن والاستقرار ، وأخيراً رفع صوته عالياً مغنياً نشيد الانتصار . وجلس مفكراً يسائل نفسه هل فى استطاعته أن ينقل إلى الدنيا ما حصله من علم .

وجاء اثنان من التجار ، وهما بالليكا وتابوسا ، وقدما له الطعام ، وقد قبل البوذا أولهما تلميذاً له ؛ ونهض البوذا من مجلسه قاصداً مدينة بنارس ، باحثاً عن النساك الخمسة الذين احتقروه واستخفوا به ليبصرهم سبيل الرشد ، وكان أستاذاه آلارا وأوداكا قد ماتا ، ولولا ذلك لقصدهما قبل غيرهما .

وفى طريقه إلى بنارس لقى شاباً برهمياً مزهوًّا بنفسه ، وعنى هذا الشاب مع ذلك بأمر المتسول العظيم الشخصية الذى مر به ، وأراد أن ينصب له شركا ، فقال له « أيها المرشد من هو البرهمى الصالح ؟ فأجابه بوذا على الفور « التغلب

على الشر كله ونقاء الفكر وعفة اللفظ ونظافة الأعمال هذه كلها صفات البرهمى الصالحى » .

فوقع هذا الرد من نفس الشاب البرهمى المتكبر موقع التأثير ، وهز نفسه هزاً . فقال له فى غير تردد « لماذا وجهك جميل مشرق كالقمر فى صفحة الماء الهادئ ؟ من أين جاءك هذا الهدوء الذى يحف بك ؟ ومن عشيرتك الشريفة ومرشدك ؟ وما طريقتك ومذهبك فى هذه البلاد التى يجاهد فيها كل إنسان باحثاً عن الطريق ؟ » .

فأجابه البوذا « سعيد كل من رأى الحق ، وسعيد من خلت نفسه من سوء النية ، وملك زمام أمره ، واهتدى إلى الطريق المستقيم ، وأسمى ضروب الحرية هى الخلاص من أوهاق الذاتية ، وليس لى عشيرة شريفة الأصل ، وليس لى مرشد ، إنى أسير منفرداً قانعاً راضياً » .

فأجابه البرهمى المتكبر « أيها السيد المبجل ، الطريق ممتد أمامك » .

وسار البرهمى فى الطريق المخالف دون أن يعرف أن الفرصة قد عرضت له ولكن لم يغتنمها .

وجاء البوذا إلى بنارس ، وقصد المتنزه الذى يقيم به النساك الخمسة ، فلما أبصروه قادماً تهامسوا فيما بينهم قائلين فى احتقار « هذا الناسك جوتاما الذى يأكل شهى الطعام ، ويعيش عيشة البذخ ، لنضن عليه بالإحترام ، ولنمتنع عن الوقوف تحية له ، ولنكتف بأن نفسح له مكاناً كما نفعل للناس العاديين ، وليجلس إذا شاء » .

ولكن لما دنا منهم البوذا تقدمته مهابته ، وسبقته روعة محضره ، فلم يستطيعوا تنفيذ ما أجمعوا عليه أمرهم ، وهبوا واقفين ، وحمل واحد منهم جبته ، وتناول آخر مزوده ، وحمل إليه ثالث مقعداً ، وجاءه رابع بالماء ،

وجلس البوذا ، وغسل قدميه المتعبتين بالماء ، وألقى على هؤلاء الخمسة أولى محاضراته ، فسر قلوبهم ، ولاح بريق الفرح فى نظراتهم .

وسرعان ما ذاعت أخبار البوذا وعلت شهرته ، وهرع إليه شبان من أبناء الأسر العريقة والطبقات العالية الذين أنهكت أبدانهم الشهوات ، آملين أن يسمعوا منه الأنباء السارة والخلاص من الأحزان .

وقصة أحد هؤلاء الشبان واسمه يا ساس جديرة بالذكر ، فقد كان من الشبان الأثرياء الذين يستطيعون بما أوتوا من بسطة فى المال أن يحققوا كل مطالبهم ، وكانت فى نفسه ناحية من النيل جعلته غير مستريح للإنغماس فى الشهوة والجرى وراء المتعة ، ففى ذات ليلة وهو جالس بين نسائه الحسان وقد نال من نفسه الملل من الحياة قام من مجلسه ، ومشى إلى حديقة داره ، وكانت أشعة القمر متلألئة وقد سجا الليل ، فوقف وقال لنفسه « أيها القلب ما أشد ما تلقاه ! وأيتها الروح ماذا تحملين من المتاعب والأوصاب ! من فى هذه الدنيا يستطيع أن يهدينى سبيل الخير؟ » .

واستهواه السرى فى الليل حتى وصل إلى المتنزه ، وكان بوذا قد جلس هناك مفكراً متأملاً فى ضوء القمر ، وصافح سمعه ما قاله يا ساس ورددده ، وعرف البوذا ما يعانيه هذا الشاب فقد كان مثله ربيب نعمة وصاحب مال وجاه ، فقال له « ياسيدى أنت متعب ، وعندى لك حياة ليست ضارة ولا متعبة ، وتعاليمها لا تؤلم ولا ترهق » .

فخلع يا ساس نعليه المذهبتين ، وجلس إلى جانب هذا الغريب الذى لم يكن يدرى من أمره شيئاً ، وتحدث إليه البوذا عن ما تجره الشهوة من الشقاء والتعب والضياع ، وعما يغمر النفس من الهدوء حينما تنبذ اللذات ، وتتخلص من الشهوات ، فأخذت أنوار الحكمة تضىء نفس يا ساس ، ودله البوذا على

الطريق ، ونهض يا ساس عند انبثاق الفجر وقال «لا أستطيع الآن أن أعود إلى الحياة التى أراها الآن حياة باطلة زائفة حمقاء مثل قصة يرويها أبله ، وأرجو أن تقبل انضمامى إلى أتباعك ، ودخولى فى مذهبك حتى أستطيع أن أقضى حياتى فى تحصيل المعرفة» .

فأجاب بوذا «إنى أرحب بك فى طائفتنا ، وسنعلمك طريقتنا ، وبذلك تبدأ حياة جديدة» وفى التو واللحظة حضر والده يسأل عنه ، واشترك هو كذلك فى الحديث مع البوذا ، واستمالة المذهب الجديد فقال للبوذا «أمر عجيب رائع حقاً مصباح يضىء المكان المظلم ، فهل يقبلنى السيد ضمن أتباعه العلمانيين ؟» .

فاستجاب البوذا لرغبته ، ونظر الرجل إلى ابنه وقد تجرد من الذهب والفضة وارتدى الحلة الصفراء ، وسأل البوذا أباه قائلاً «أيمكن أن يرتد يا ساس إلى حياة المتعة والشهوة ؟» فأجابه والده «يا سيدى إن هذا غير ممكن ، وكسب عظيم لياساس أن يصبح حراً» .

وهكذا اجتمع حول بوذا الأغنياء والفقراء ، وكان يقبل الجميع فى مذهبه بغير تفريق ولا تمييز ، ولم يرفض قبول النساء حتى اللواتى عشن منهن عيشة انطلاق واستخفاف .

ويروى الرواة قصة المرأة المومس الحسناء التى جاءته وهى تظن أن جمالها قد يكون شفيعاً لها ، وأنها قد تحول المرشد عن مذهبه ، وتستنزله من علبائه كما حدث لبعض الحكماء فى العصور الخالية ، ولكنها حينما رأته جالساً مضموم اليدين والقدمين ومستغرقاً فى التفكير الهادئ فاضت الدموع من عينيها ، وارتمت على الأرض عند قدميه ، ولصقت وجهها بالتراب ، وسرها ما سمعته من محاضراته ومأثور كلماته ، وتعمقت المذهب البوذى حتى أصبحت من أعرف

الناس به ، وألفت نشيداً فى تمجيد البوذا ما يزال باقياً .

وتكاثرت جموع الناس حوله ، وأوفد ستين رسولاً من تلامذته وأتباعه للتبشير بمذهبه فى النواحى النائية ، واستعد لزيارة والده ، وسار على قدميه يتبعه بعض أتباعه لزيارة والده ، ورؤية داره ومهد نشأته فى مدينة كابيلا فاستى .

وكانت شهرته باعتباره مرشداً عظيماً قد بلغت مسامع والده وأهل بلده ، فاستعدوا لإستقباله ، وأقاموا الأقواس فى الطريق ، وحملوا أكاليل الأزهار والقرابين تكريماً لمواطنهم الذى سيعود إليهم مرشداً عظيماً .

وانتظره والده وحوله الأعيان والوجهاء ليستقبله ، وبينما كان والده ينظر إلى ناحية الطريق المترب رأى ناسكاً شاباً فى حلة صفراء يحمل مزود الصدقات ، وكان يستجدى الطعام من المنازل ، ويتلقى ما يقدم له فى صمت هادئ ، وكان هذا المتسول سيد زارئاً .

فتصارعت فى نفس والده عوامل الخجل والحب والغضب وعصفت بها عصف الريح العاتية بأوراق الأشجار ، وقبض بيده على ثوبه وجذبه إلى صدره وصاح بأعلى صوته قائلاً « يا للعار والشنار ، نجلى يتسول ! لقد نزلت قبيلتنا إلى الحضيض وجللها العار وأورثها الخزى » .

« هذه سنة شعبنا يا أبى » .

فأنكر والده ذلك إنكاراً شديداً وقال له « لم يسأل أحد من أجدادنا الناس الخبز » .

فأجابه البوذا « أيها المهراجا ، أنت وعشيرتك السامية تدعيان الإنحدار من سلالة الملوك ، ولكن أصلى بعيد عن ذلك ، إنى أنتسب إلى المستنيرين فى الأيام الخالية ، وأفعل كما فعلوا ، ولا أستطيع أن أعمل غير ذلك » .

ولما رأى أن والده لا يزال حزيناً قال له «تخلص من قيود الحب الأرضى ، لأن هناك نوعاً أسمى من الحب ، وأرجو أن يتلقى منى والدى غذاء روحياً لم يسبق أن قدمه ولد لوالده» .

ودخل القصر فى صحبة أبيه ، ولقى زوجته ياشوداراً وقد أرتدت الثياب الخشنة الصفراء ، وحلقت شعر رأسها ، وتنازع قلبها فى حضرته الحب والكبرياء ، ونظرت إليه نظرة عطف وإشفاق ، أما هو فقد نظر إليها نظرة لم تستطع تبين مغزاها ، ولم تملك أن جثت أمامه وألقت وجهها على قدميه ، وقبلتهما وهى تبكى بكاء مرا ، ونهضت فى وقار وانتبذت فقد أدركت ما بينهما من مسافات ، وذكر له والده حزنها وصبرها وتعذيبها لنفسها وكيف زهدت فى كل شىء تشبثاً به فى أخذه نفسه بالحياة الصارمة ، وسمع البوذا ذلك كله ، وقال فى تؤدة ونظره متجه إليها «هذا حق ، لقد عهدتها فى الحياة السالفة من أفضل النساء ، وما أزال أذكر ذلك كله فى إرتياح وسرور ، وستذكر هى كذلك هذا فى يوم ما ، فيا أم ولدى إن الطريق الذى فتحته ومهدته لك أن تسلكيه» .

وأخذت بمذهبه هى ووالده ونجله راهولا ، وترك البوذا زوجته وولده ووالده راضين محبورين وعاد إلى شرافستى الواقعة على نهر رابتى ليستأنف جهاده ، ويتمم رسالته فى التغلب على الشر وهزيمة الحزن .

وقد أمتد عطف بوذا على الأحياء حتى شمل الحيوان ، ومن المعروف عنه أنه حينما هم الملك بمبيسارا بتقديم الماعز قرباناً وقف يد الكاهن ودافع عن الماعز ، ومنذ ذلك الوقت أمسك البوذيون عن تقديم الذبائح قرباناً ، وعند بوذا أن حلقة تطور الحياة متصل بعضها بالبعض الآخر ، فليست هناك حياة غريبة عن الحياة فى مظهرها العالى أو مظهرها الوضيع .

وقد قضى البوذا حياته فى الإرشاد متنقلاً من مكان إلى مكان ، وكان فى أثناء سقوط الأمطار يأوى إلى الأديرة ، وكان أينما حل يوصى بصدع قيود الجهل والشهوة ووهم تفرد النفس ، ويقاوم الشك والإعتقاد بالطقوس والشعائر وغلبة الحواس وكراهة الأغيار ، ولكنه كان فى الوقت نفسه لا يرغم إنساناً على قبول تعاليمه ولا يهدد أحداً لأنه لم يعمل بنصائحه وتوجيهاته ، كان يلقى تعاليمه كما ترسل الشمس ضوءها للسائرين دون أن ترغمهم على سلوك طريق معين .

وكان يقاوم الحزن ، ويعلم أتباعه مقاومة الاستسلام للحزن أو قبوله والاستراحة إليه ، لأن الحزن فى رأيه لون من ألوان الجهل ، ولذلك كان ما ينفك يوصى أتباعه بإقتلاع الحزن من قلوبهم ، وقد ظل البوذا محتفظاً بوداعته وهدوء نفسه وركانة حلمه حتى بعد أن تقدمت به السن وأوهنته الشيخوخة ، لقيه مرة شاب فى مقتبل العمر وريعان الشباب وقد بلغ البوذا من الكبر عتيًّا فسأله قائلاً «أيها المرشد ! أيعيش سيدى المبجل عيشة سعيدة ؟» فأجابه بوذا «نعم أيها الشاب ، إنى من عداد السعداء فى الدنيا» .

ولكن الشاب كان مشفقاً على البوذا لما رآه عليه من مظاهر الشيخوخة ، فاسترسل فى الحديث قائلاً له «أيها المرشد ليالى الشتاء قرة ، وقد حان أوان الصقيع ، وثياب الناسك خفيفة ، ورياح الشتاء عاتية حادة قاسية» فابتسم البوذا وأجابه قائلاً «برغم ذلك أيها الشاب إنى من عداد السعداء فى الدنيا» .

وكان حينذاك قد بلغ الثمانين ، وقد تكاثرت المتاعب وأعباء الحياة على الجسد الفانى ، ولكنه إلى اللحظة الأخيرة كان يرسل الضوء الذى يبدد الظلمات ويملأ النفوس بهجة وسلاماً ، وأصابه المرض ، واشتدت به العلة ، ولكنه لم ير من الصواب أن يمضى به الموت دون أن يوجه كلمة إلى تلامذته وأشياعه

ويودعهم ، فقاوم المرض ، وتجلد وتماسك وخطب أتباعه خطبة الوداع قائلاً «لقد تقدمت بى السن ، وعلتنى كبرة . وآذنت رحلتى بالإنتهاء ، وقد شارفت الثانين ، وضعف الجسم ، ووهن العظم ، فكونوا لأنفسكم مصابيح ، ولا تلتمسوا ملاذاً خارجياً ، واستمسكوا بالحق ، ولا تطلبوا النجاة عند أحد غير أنفسكم . والذين سيصبحون بعد موتى مصابيح لأنفسهم ، ويستمسكون بالحق ، ولا يطلبون النجاة عند غيرهم ، هؤلاء هم الذين يبلغون رفيع الذرى» .

وتابع تنقله وتطوافه ، وفوته تتناقص وصحته تسوء ، ولما وصل إلى فيشالى ومعه حواريوه أمر تلميذه المحبوب أناندا أن يجمع الأتباع من النواحى المجاورة ، فلما التأم شملهم خاطبهم قائلاً «مارسوا الحقائق أيها الرهبان ، تلك الحقائق التى كشفتها لكم ، وأجيلوا فيها الفكر . وأعملوا على إذاعتها حتى تبقى لخير الناس وإسعادهم ، وأعلموا أيها الرهبان أن كل شىء مركب من أجزاء تعتريه الشيخوخة وتتحلل أجزاؤه ، فاعملوا على خلاص أنفسكم فى جد ومثابرة ، والذى يحدثكم سيكون فى خلال ثلاثة أشهر من الموتى ، وسأترككم وأرحل معتمداً على نفسى وحدها ، فجدوا وكونوا طاهرين أتقياء ركينين راجحى الأحلام ، وراقبوا قلوبكم ، والذى يستمسك بالقانون ولا يمسه من ذلك لغوب سيعبر بحر الحياة ، ويطوى عهد الأحزان» .

وغادر مدينة فيشالى مع أناندا تابعه وتلميذه الأثير ، وقصد بنداجاما ، وبعد أن استراح قليلاً خاطب أتباعه بها قائلاً «إن جهلنا بالحقائق هو الذى يجعلنا ننتقل فى هذه الدائرة المتعبة دائرة الميلاد والموت ، ولكن السلوك النبيل والتفكير السامى ، والحكمة العالية ، تنتزع جذور التعلق بالوجود ، وتكسر حلقة الميلاد والموت فلا نعود إلى الأرض مرة أخرى» .

وقصد مدينة كازبناراً ، وفى طريقه إلى هذه المدينة أشتدت به العلة ، وبرح به المرض ، ولكنه احتمل آلامه صابراً متجلداً ، وعرف أناندا أن وقت فراق أستاذه قد حان ، فاشتد حزنه ، وابتعد عن البوذا حتى لا يراه باكياً ، ولكن البوذا استدعاه وقال له «لا تبك يا أناندا ، ألم أخبرك أن من طبائع الأشياء أن نفارق أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا ؟ وكيف يمكن أن يظل الشمل مؤتلفاً ولا يطرأ على التجمع التفرق ؟ ولقد صحبتنى طويلاً ، وكنت لى الصديق المعين ، والتابع المخلص الأمين الذى لا يحول عهده ، ولا يتبدل وده ، ولقد أحسنت الصنيع ، فثابر على جهودك ، وستبلغ قريباً رتبة الواصلين» .

ولما دنت الخاتمة قال لأصحابه «قد يظن بعضكم الآن أنكم بعد موتى ستصبحون بغير مرشد ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن قواعد المذهب وتعاليمه وسننه ستكون المرشد لكم حينما أغيب عنكم ، وإذا كنتم فى شك فى أمر من أمور المذهب فاسألونى قبل أن تفتقدونى ، اسألوا فى حرية وطلاقة أيها الرهبان ، وقد يحجم بعضكم عن السؤال والإستفسار إجلالاً للمرشد ، وإذا كان الأمر كذلك فليكن حديثنا حديث الصديق لصديقه» فلزم الجميع الصمت ، وقال أناندا «ليس بيننا من يخالجه شك» .

وإزداد ضعف البوذا ، وعرف أناندا أن الساعة قد دنت فركع ، وعم الصمت وكانت آخر كلمات البوذا «اذكروا أيها الإخوان أن التقلب والتبدل والزوال كامن فى الأشياء المركبة ، فاعملوا على خلاص أنفسكم بجد واهتمام» .

فركعوا جميعهم حوله ، وانتقل البوذا إلى حالة الغيبوبة ، وتنقل فى حالات شتى حتى حالة اللاشيئية ، ووصل إلى توقف الحس والفكر .

وأعلن تلامذته أن مرشدهم قد بلغ أسمى درجات النرفانة : وهى درجة توقف الحس وامتناع التفكير ، وعزاهم عن فقده أن كل الكائنات محكوم عليها

بأن تفقد فرديتها . وأن هذا القانون لا يستثنى أحداً حتى مرشدهم العظيم ، وكل ما فى الدنيا إلى زوال وفناء ، وكيف يمكن أن يكون غير ذلك ؟

واحتفل أتباعه بحرق جثته ، وختمت بموته حياة رجل كان من أبلغ الناس أثراً فى حياة آسيا الروحية ، وحياة الإنسانية جميعاً ، وقد جمع تلامذته أحاديثه ومحاوراته ومختلف آثاره وأصول مذهبه ومبادئ فلسفته فى ثلاثة أسفار عرفت باسم « السلات الثلاث » وكانت محتويات هذه الأسفار تتناقل بطريق الحفظ والرواية ، ولما خيف عليها من الضياع جمعت فى سنة ٨٠ قبل الميلاد

وفى الوقت الذى ولد فيه البوذا ونشأ كانت الخرافات ذائعة شائعة وغالبة على العقول ، وقد حجبت الأساطير الملفقة والأكاذيب المصنوعة جوهر فلسفة الفيدانتا ، وصارت الشعائر والطقوس كل شىء ، وشغل رجال الدين بمسائل جدلية قليلة الجدوى ، ومناقشات دينية عقيمة ، وملأ الشك الجو ، وعم القلق .

وكانت هذه الأزمة المستحكمة تشير إلى ضرورة قدوم الرجل المخلص العظيم الذى يرد إلى الدنيا التوازن بين الروحيات والماديات ، ويخصص العقل لخدمة الإنسانية ، وحاجة بعض العصور الماسة إلى مثل هذا الرجل لا تلبى فى كل وقت ، وقد كان من حسن حظ الهند أن ظهر مثل هذا الرجل فى إبان الحاجة إليه وقد بلغت الأزمة أشدها .

وكان أول عمل عمله البوذا هو الحملة على الكهانة والطقوس والشعائر الدينية والتقاليد ، فما علاقتها بالحقائق الخالدة ؟ إننا نستطيع أن نلمح المثالى فى كل ما يراه الناس وما يسمعونه وما يصنعونه إذا تتبعنا العلاقة بين السبب والمسبب ، وما حاجتنا إلى ما فوق الطبيعة ؟ فلنعتصم بالتجارب ، وقد جرب البوذا نفسه مقاومة الشك بالممارسة والتجربة ، وكان مصباحاً لنفسه .

وكثيراً ما يقال عن بوذا إنه زعيم المتشائمين ، ولما ظهر الفيلسوف الألمانى الكبير آرثر شوبنهاور وذاعت فلسفته وعرفت نزعته وصفه بعض الباحثين بأنه بوذى عصره ، ومما ساعد على ترويج هذا الرأى أن شوبنها وركان شديد الإعجاب بالديانة البوذية ، وهو يقول فى كتابه المشهور «الدنيا إرادة وتصوراً» «إذا اتخذت نتائج فلسفتى مقياساً للحق فسأكون مضطرًّا إلى التسليم بأن للبوذية المكانة السامية بين الأديان ، ومهما يكن من الأمر فإنه مما يرضينى أن أرى تعاليمى على مثل هذا الوفاق والتجاوب مع ديانة يدين بها أكثر سكان هذه الأرض» ولكن فريقاً من أنصار بوذا يقولون إن بوذا يعلمنا الحزن ويعلمنا كذلك كيف ننتزع جذور الحزن ونظفر بالأمن والطمأنينة ، ولا يستطيع أى مفكر أن ينكر وجود الأحزان والكوارث وخيبة الآمال فى الحياة وقسوة الطبيعة سواء فى عالم الحيوان أو دنيا الإنسان ، وكل فلسفة تشير إلى ذلك وتحاول تفسير لغزه والكشف عن سره ، وبوذا لم يحجم عن وصف العلة ، وبيان الأعراض ، والطبيب الحق لا يتردد فى ذلك لكى يصف الدواء ويوضح طريقة العلاج .

وبوذا غير يائس من الخلاص لمن اتبع مذهبه ، ودان بعقيدته ، وتبدأ فلسفته ببيان ما يسميه الحقائق الأربع النبيلة ، فالحقيقة الأولى تعترف بوجود الشقاء ، والحقيقة الثانية تسلم بوجود سبب هذا الشقاء ، والحقيقة الثالثة تقرر أنه يمكن إزالة هذا السبب ، والحقيقة الرابعة تؤكد لنا أن الطريق إلى تحقيق ذلك ميسور للجميع .

والبوذية تحاول إنقاذنا من حبائل الشر ، ومخالب الحزن والهم ، ومن أجمل نواحيها إشادتها بفضائل التواضع والصبر والإحتمال والعطف والشفقة ورقة الأخلاق وعذوبة النفس وصفاء الطبع والعفة والطهارة وإيثار التضحية ونبذ الأنانية .

على أن الأخلاق الفاضلة الرضية ليست عند البوذيين كافية للوصول إلى النرفانة ، وإنما السبيل المباشر إليها هو الإستغراق فى التأملات والتزام الزهد والتقشف ، والحكمة المأثورة تقول « لا كرامة لنبى فى وطنه » فليس من المستغرب أن تهزم البوذية فى الهند موطنها الأصلى لتعيش فى الصين واليابان ، وقد اختلفت الآراء فى تعليل هزيمة البوذية فى الهند وانسحابها منها ، ويقول السير شارلز اليوت « هناك من الأسباب المتوافرة ما يدعو إلى الإعتقاد أن البوذية كانت لا تزال مزدهرة بأقليم بيهار فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وأن عدد قساوستها كان يبلغ الألوف المؤلفة ، وأن تعاليمها كانت موضع الإحترام ، ولكن الضربة القاضية عليها وقعت سنة ١١٩٣ ففى هذه السنة غزا إقليم بيهار القائد محمد بختيار وهو أحد قواد قطب الدين أيبك (أحد ملوك دولة المماليك فى الهند) واستولى على عاصمتها وقتل الرهبان البوذيين جميعهم « وكانت البوذية محصورة فى الأديرة الضخمة ، فلما حطمت هذه الأديرة لم يبق شىء خارجها يستطيع الثبات أمام الإسلام من ناحية والبرهمية من ناحية أخرى » ولكن المستنيرين من الهنود يرفضون الرأى القائل بأن الغزوات التى قام بها الفاتحون فى الهند كانت من أسباب إضعاف البوذية فإن ديانة زارو استر لا تزال فى إيران والديانة الهندوسية لاتزال فى الهند .

وعلل بعض المؤرخين تقلص ظل البوذية فى الهند بما طرأ على آدابها من تدهور وانحطاط لأن الرهبان البوذيين لم يستطيعوا الإرتفاع إلى مستوى المثل الأعلى البوذى ، ومهما تكن الأسباب التى دعت إلى ذلك فإن البوذية وجدت فى الصين مجالاً رحباً .

ويرى المفكر الهندى الأستاذ واديا أن من سوء حظ الهند خروج البوذية منها ، لأن الديانة البوذية بنزعتها الإنسانية تقاوم نزعة التفريق بين الطبقات التى

عاقت نهضة الهند ، وصدعت وحدتها ، وجعلتها هدفاً للغزاة والمستعمرين ، وأضعفت فيها قوة المقاومة .

وهو يرى أن ظروف الهند الراهنة ما تزال فى حاجة إلى رسالة البوذية الموحدة للصفوف الجامعة لشمل مختلف الطبقات ؛ وهو يقول « لقد أشار بوذا إلى الطريق وعلى الهند أن تتبعه » .